# يمين العلي

رواية تاريخية للاب س. ت البسوعي (تابع)

## الفصل السابع

### في الطريق

كتاب الضابط راسيوس روفوس الى صديقهِ لوسيليوس في بيروت
في ١٠ من كالندس آذار (٢٠ شباط)

صديقي الصَّدوق

كتابي اليك حفظتك الآلهة من قيسريَّة فيلبُّس (بانياس) لثماني بقين من شباط وكأني بك ترميني باللام وتنسبني الى الخلف بالوعد اذ لم اكتب لك الَّا بعد عشرين يوماً مضت على فراقنا. بيد انك تهد عذري ولا محالة اذا ما وقفت على اسطري هذه

بارحنا بيروت في اصيل النهار ووجهتُنا صيداء فبلغناها في بُهرة الليل الدامس بعد خمس ساعات من سير حثيث على طريقٍ سويَّة عند سيف البحر الَّا في بعض عطفاتها وكنتُ اودّ لو رافقتني لتتجاذب اطراف الحديث لأني وجدتُ رفيقنا قائد المئة أشدَّ بكماً من الحيتان لا يكاد يُسمع لهُ صوت في طريقهِ وربَّما حاولتُ لافتكَّ قُفل شفتيهِ فكنتُ اخيب من القابض على ماء. وغاية ما كان يجيبني بعض الفاظ قصيرة متقطعة تفحمني وتقطع جرَّتي فرأيتُني مضطرًّا الى ان ألزم الصمت واصون غرار اللسان في غمدهِ. على اني كنتُ اجد في هذا القائد كل صفات الجنديّ الرومـاني فلا ترى لهُ شبيهاً في حفظ النظام العسكري وملازمة قوانين الجنديَّة ويلوح ذلك في كل حركاتهِ وسكناتهِ فتخالهُ أقوَمَ من سيفهِ واصلب من درعهِ. ولكن هيهات ان تجد فيهِ جليساً انيساً يلذُّ خطابهُ وترتاح لمؤانستهِ. فكأنَّهُ لم يفكر في شيء الَّا في الوصول الى قيسريَّة كما أُمر

ولكن ما لنا ولقائد المئة. اراك تُسرع في قراءة ما سبق لتطَّلع على الاخبار... رويدك يا صاح... اني لاعلم حقّ العلم انك واصحابك لا يشغلك سوى الحرب ولا تحلم الَّا عن الوغى ولعلَّك تريد الوقوف على عقبى الحرب قبل مباشرتنا بهـا. وماذا

يهمُّك وانت في مصيفك في بيروت تعيش بالرغد والهناء بينما نحن نتوسَّد الحضيض ونفترش القتاد ونركب الاخطار فيصحُّ فيك والحالة هذه مثل العامَّة « الحربُ بالنظَّارة سهلٌ ». ولكن لأُبرِّد غليلك قبل مواصلة خبر سفري ها اني أُسلفك علماً عن امور الحرب. انَّنا الآن ضاربون الخيام في قيسريَّة ونحن في انتظار اوامر القائد الكبير من ساعة الى اخرى وفي صباح هذا النهار اتانا طيطس ابن الامبراطور ڤسپسيان بجيش جرَّار وهو كما تعلم الذي وكل اليهِ ابوهُ مواصلة الحرب الاورشليميَّة

فهاك الآن قد خمد لظى فضولك فلنعودنَّ الى تفاصيل اخبار سفرنا بعد مرحلتنا الاولى

اقمنا في صيداء خمساً ليس للراحة بل لانتظار قومٍ من الرديف وليلحق بنا بعض الضبَّاط والعُمَّال ذهبوا بالرخصة فآن لهم الرجوع الى فِرَقهم

فرأيتُ في التأخير انسب فرصةٍ لاطوف في كل انحاء صيداء وامتِّع الابصار بجميع آثارها وقد اجتمعت بكثير من اهلها فلقيتُ عندهم من المجاملة واللطف ما حبَّبهم اليَّ وزاد مدينتهم في قلبي اعتباراً. فانَّ هذه البلدة والحقّ يقال تستحقُّ ما لقَّبها بهِ الشعراء من الاسماء الحسنة... هي درَّة المشرق وملكة البحار وسيِّدة العالم القديم...

ولكن أتعرف ما اعجبني فوق كلّ شيء في صيداء... احزر ان امكنك... لا ليس مرفأها العجيب حيث تتهادى الوفٌ من السفن التجاريَّة... ولا معاملها الارجوانيَّة التي فيها تُصبغ تلك الاكسية الفاخرة التي خُصَّ بها الملوك لرونقها وبهائها الساطع... هيكل اشمون؟ كلاَّ لم تحزر مع اني وجدت في هذا البناء من الاعمال الهندسيَّة والكنوز الفنِّيَّة ما اذهل عقلي وخلب لبِّي

فايُّ شيء اذن استحسنتُهُ فوق الكل بصيداء؟... اتقرُّ بجهلك؟... اعلم ياصاح انَّ الذي اذهلني في صيداء ذهولاً ليس عليهِ من مزيد... انَّما هو امر... النصارى

نعم النصارى... ولستُ في قولي هذا مصاباً بمسٍّ في عقلي كما تزعم... فكُفَّ عن القهقهة واسمع ما جرى لي معهم... واياك ان تحسبني منهم فتظنَّ انني متعبد لسَمَكتهم وان كنتُ مولعاً باكل السمك

وهنا كاني اراك تريد عجباً وتنسبني الى الهذيان. نعم انَّ للنصارى رمزاً وهو السمكة. لا يخفاك انَّ السمكة يُقال لها باليونانيَّة (IXΘΥΣ) ولعلَّك سمعت انَّ

النصارى يعبدون شخصاً يُدعى يسوع ويلقبونهُ خرستوس اي مسيحاً ويزعمون انهُ ابن الله وانهُ فاديهم. فعمدوا الى اخذ اوَّل حرف من كل هذه الالقاب فاذا بمجموعها تتكوَّن لفظة « السمكة » باليونانيَّة. ولذلك تراهم يصوّرون على نواويسهم وفي معابدهم صورة السمكة اشارةً الى معتقدهم

فترى ان في اصطلاحهم هذا لعجباً لكن امورهم اعجب من ذلك... وهنا اراك تكرّر على مسامعي ما بلغك من اسرارهم عن لسان مبغضيهم... هم قوم أثمة ومنبع الضلالة وعشُّ الفتنة واعداء الآلهة... يجتمعون في جوف الليل ليضحُّوا الضحايا البشريَّة فيقتاتوا من لحمان اطفالٍ صغار...

هذا ما كنتُ انا ايضاً اسمعهُ ولعلي كنت افتي بصحَّتهِ. على أنني اليوم نبذت هذه الخرافات نبذ النواة مذ جمعني ونصارى صيداء نادٍ واحد وقد اردتُ ان افحص بنفسي عمَّا تتناقلهُ الالسن في حقّهم فسألت افراداً منهم بين شيوخ وشبَّان بين نساء ورجال فلم اجد في روايتهم اختلافاً ولا شيئاً ممَّا يريب العقل من يتهم

ومُجمل قولهم انَّ الههم واسمهُ يسوع الناصري ظهر على الارض قبل سبعين سنة فولد في مذود ومات على صليب الَّا انَّ موتهُ كان مبدأ حياةٍ جديدةٍ اذ قام من قبرهِ ويشهد على ذلك حوَّاسنا الرومانيُّون ثم تراءى مراراً لتلامذتهِ وصعد ظافراً الى السماء بازاء خمسمائة من الشهود لا يزال بعضهم حيًّا الى يومنا هذا. امَّا حياة الههم فكلُّها عجائب اطَّلعتُ عليها في كتابٍ يدعونهُ انجيلًا اوقفوني عليهِ فلم اجد ضمنهُ الَّا اموراً تدلُّ على فضل عظيم وفلسفةٍ اسمى من فلسفة حكمائنا. فشتَّان بين اعمالهِ واعمال آلهتنا التي غذتنا أمهاتنا باقاصيصهم منذ حداثة سنّنا. فليس شيء من تلك التُرّهات واحاديث العجائز وانَّما ترى كلّ شيء في حياة يسوع مطابقاً للعقل الصائب مزيلًا لشبهات النفس مفعماً بالتقى وروح الله

وما كان يقضي مني العجب ما اخبرني بهِ بعض صعاليكهم صرفتُ ليلة في مسامرتهم في كوخ احد الحيَّاكين فجعلوا يقصُّون عليَّ اخبار مسيحهم فكان بينهم شيوخ وعجزة يذكرون يوم دخل مدينتهم صيداء فاجتازها وهو يصنع المعجزات (متى ١٥: ٢١). فكان الواحد يقول: فلله هذا النبيّ ما كان الطفهُ واحنَّهُ. كنتُ منهوكاً بداء عياء فوضع يدهُ عليَّ وشفاني... وقال الاخر: وانا كنتُ كسيحاً فامرني ان اقوم وامشي

قمتُ سالماً . . . وسمعتُ ثالثاً يهتف كيف يُنكَر لاهوتُهُ وقد سرتُ يوماً مع خمسة آلاف رجل الى البريَّة فوق طبريَّة لنسمع كلامهُ ولم نأخذ معنا زاداً فقاتنا كلَّنا بخمس خبزات وسمكتين وبقي من الفضلات ما ملأ قففاً عديدة

وما اتمَّ هذا الراوي حديثهُ حتى اجهشت امرأةٌ بالبكاء وقالت: لما مرَّ يسوع بصيداء كنتُ فتاةً يعذّبني شيطان فخرجت امي تصيح وتقول: ارحمني يا ابن داود فزجرها اوَّلاً ليرى ثبات ايمانها ثم جازاها عن ثقتها قائلاً: يا امرأة عظيمٌ ايمانك فليكن لكِ كما اردت. ومذ تلك الساعة شفيتُ تماماً ( راجع انجيل مرقس ف ٧ )

وهذا ليس باعجب مما رواهُ لي بعض الحضور اذ قال: « كنتُ سنةَ قتلهُ اليهود صعدت لاورشليم لاسجد في الهيكل اذ حكم عليهِ بالموت رؤساء الكهنة وبيلاطوس البنطي. فلمَّا عُلّق على الصليب رأينا الشمس منكسفة وشعرنا بزلزال الارض وانشقّ ستار الهيكل. واما الميت فلم يُسمع من فيهِ غير كلام الغفران لاعدائهِ حتى انَّ قائد المئة والجنود الذين كانوا معهُ لمَّا رأوا هذه العجائب اخذوا يقرعون صدورهم قائلين حقًّا انَّ هذا كان ابن الله »

وزاد على هذه الروايات شيخ منهم كان مشتملاً باطمارٍ لكنَّ وجههُ كان متَّسماً بسمة الوقار والسكينة: وانا اعدُّ اسعد ساعةٍ في حياتي اذ كنت بعد موتهِ باربعين يوماً على جبل الزيتون فظهر لنا بجلال عظيم وخاطبنا بكلام الذَّ من الشهد ثمَّ باركنا وتصاعد الى السماء كانهُ عمود من بخور يرتفع الى طبقات الجوّ. وبينا كنَّا نبكي جميعنا ونحن نراهُ يفارقنا اذ وارَتْهُ غمامةٌ عن ابصارنا فبقينا متحيّرين مدَّةً حتى تراءى لنا ملاكان فقالا لنا انَّ الربَّ سيأتي يوماً على سحاب ليدين العالمين كما رأيتموهُ اليوم صاعداً على عنان السماء. . . فمذ ذاك اليوم انا في انتظارهِ وها قد اربى عمري على الثمانين. . . وان لم يأتِ فانا اذهب اليهِ لاكون معهُ مدى الابد »

هذه هي الروايات الغريبة التي كنت اسمعها من افواه هؤلاء الفقراء. ولا يمكني ان اشكّ في صحّة قولهم لانهم شهود عيان اخبروني بما رأوا وسمعوا ومن المحال ان يُخدَع الوفٌ من البشر في وقت واحد . . .

ولعلَّك يا لوسيليوس تقطع لي هنا كلامي فتقول لي بصوتك الغليظ الأجشّ: وما لك لا تدين بدينهم ان كنت تصدّق كلّ خرافاتهم. . . هيَّا تعبَّدْ لابن النجّار »

على رِسلك يا صاح واعلم اني لا اراني حتى الآن قادرًا على اتباع آثار هؤلاء النصارى فانَّ في تعاليمهم امورًا تنوءُ تحت اثقالها مناكبي كيف لا وفي اقوال مسيحهم ما لا اطيق حملهُ كقولهِ مثلًا: « طوبى للفقراء . . . طوبى للجياع . . . طوبى للحزانى . . . صلُّوا لمن يضطهدونكم ويعيّرونكم . . . » واشياء كثيرة لم نرَ احدًا من آلهتنا تكلَّم بها فضلًا عن انهُ لم يمارسها البتَّة

وعليهِ اني افضّل ان اعيش في ديانة سهلة يحبُّ آلهتُها البسط وملاذَّ الدنيا . لكني لا اتمالك من اعتبار المسيحيين والاقرار بسموّ فضلهم

ومع ما تقدَّم لا تظنّ انَّ النصارى قومٌ بائسون يعيشون منكوسين متعوسين كلًّا بل تراهم على خلاف ذلك في السرور والبهجة مع ان اكثرهم فقراء يرتزقون بالشغل والتعب ولا يعرفون الترفُّه ورغد العيش . وقد لحظتهم اذا كانوا يجتمعون في كل مساء في معبدٍ حقير اقامهُ لهم كما ذكروا لي بطرس الصيَّاد وهو تلميذ يسوع الذي جعلهُ رئيساً على شركتهِ فدبَّر امورهم الى ان قتلهُ منذ ثلاث سنوات ملكُنا نيرون . وما كانوا يأتون للصلاة بشيء آخر سوى خبز ملَّة وشيء من الخمر . وليس في هذه المآكل ما يدلُّ على التَّرَف والنعمة

ثمَّ ترقَّبتهم عند خروجهم من صلاتهم فكانوا يخرجون صامتين قانتين على جبينهم لوائح البرّ والطهارة كأنهم ارواح سماويَّة لا بشر وكان بعضهم يذرفون الدموع الَّا انَّها دموع الفرح وسرور القلب . . . لعمري انَّ لفي ذلك سرًّا لا ادركهُ ولا بُدَّ لي ان اطَّلع عليهِ . وقد سألت صديقي لاونطيوس الذي عرَّفني بهم ان يكشف لي عن سرّ هذا الاجتماع وسبب فرحهم بعد اقامتهم هذه الرتب . فكان يجيبني دائمًا: « انَّنا نجتمع للصلاة ولكسر الخبز » . . . ولكن انَّى لهم هذه البهجة وهذه البشاشة الغريبة او ليس نحن ايضًا نقرّب في هياكلنا قرابين الخبز والخمر للآلهة ؟ . . .

قد اطلتُ الكلام في النصارى كما ترى . وما ذلك الَّا لاني رأيتهم لاوَّل مرَّة وباحثتهم وكنتُ اسمع عنهم اشياء متناقضة دون ان اتحقَّق امرهم . فاردتُ ان افصّل لك ما وقفتُ عليهِ لعلَّك تُسرّ بمعرفتهم مثلي

والفضل في تقرّبي اليهم عائد الى صديقي لاونطيوس الذي تعرَّفتُ بهِ منذ عشرين يومًا فقط فامتزجت ارواحنا امتزاج الماء بالراح

فدونك وصفهُ لتعلم انهُ يستحقّ صداقتي بل صداقتك وفقاً لقول الفلاسفة ان صديق صديقي هو صديقي

لاونطيوس رجلٌ سوريّ الجنس رشيق القامة حسن الوجه شديد البنية واطول مني قليلًا. في وجههِ دقّة ونعومة وفي نظرهِ اباء وأنفة كمألوف عادة اهل جلدتهِ. وهو مع ذلك سَهل الاخلاق ليّن العريكة لا ترى الغضب يكدّر صفاء طباعهِ في حين يستفزّ الحرد غيرهُ. وقد تجنّد لاونطيوس في الكتيبة الرومانيّة الخامسة ولم يزل يترقّى فيها بما اظهرهُ من الشدّة والمراس في فنون الحرب حتى اصبح مثلي من اعظم ضبّاط الكتيبة المذكورة. وما كدتُ اخاطبهُ لاوّل مرّة حتى عشقَتْهُ نفسي واسرني بقيود صفاتهِ الفريدة. ولاونطيوس يدين بالنصرانيّة وبهِ توصّلتُ الى معرفة النصارى فحبّب اليّ النصرانيّة

قد طال اليك كتابي وكادت النفّاطة التي استضيءُ بها لتسطير رسالتي تنطفئ ولا اريد مع ذلك ان اختم الاوكة دون ان اشفي غليلك بخصوص احوال الجيش

كان وصولنا الى قيسريّة في اليوم الخامس عشر من شباط نقضي صلب أيامنا باستعراض الجيش والتمارين الحربيّة. واليوم قد وافانا قائد الجيوش طيطس كما اعلمتك في فاتحة كتابي. واتانا معهُ الفا رجل من نخبة الجنود اختارهم من الكتيبتين الثالثة والسابعة عشرة المحتلّتين في الاسكندريّة. وقد أثّر وصولهم اعظم تأثير في جيوشنا لعلمهم بشجاعة هؤلاء الكماة الذين حنّكتهم التجارب ونجذّتهم الحروب

اما يوم سفرنا من قيسريّة الى جهات اورشليم فقد استفاض فيهِ الحديث ولكن لا بُدّ للجيوش الواردة من مصر ان تستريح أيّاماً بعد ان قطعت خمسمائة ميل باقلّ من عشرين يوماً في براريّ ورمال صهرتها الشمس بلهيبها. ثم أنّنا ننتظر ايضاً جنودًا آخرين من جهات شتى. ففي امس ورد ٣٠٠٠ محارب من ضفاف الفرات. وبعد يومين تأتينا الكتيبة الخامسة التي انا احد رؤسائها وكانت في عمواس وكذلك الكتيبة العاشرة التي كانت في اريحا على وشك الوصول

هذا ولا يمرُّ علينا نهار او ساعة دون ان يأتينا من حلفائنا قوم منهم رجّالة ومنهم خيّالة. وقد اعجبتني كتيبة القوّاسين السوريين. وممّن اشتهر بغيرتهِ الملك اغريبا وسُحَيم صاحب حمص وانطيوخوس ملك قوماجين. وقد وافانا قومٌ من غزاة البادية

العرب تراهم هائمين الى الحرب لاسيَّما انَّهم ينقمون على اليهود لحزازات قديمة في صدورهم فينتظرون الفرصة ليشفوا الغليل من دمائهم وينتهبوا اموالهم

وخلاصة القول انَّ قيسريَّة اشبه بمعسكر عظيم لا ترى فيهِ غير الجنود على اختلاف الازياء والاصول وتقاطيع الوجه والالوان. وقد سمعتُ احد كبار القوَّاد طيباريوس اسكندر يقولهُ انَّ عدد الجنود يبلغ ٦٠٠٠٠ الفاً فوحقّ الهنا المشتري لا تنجو من هؤلاء الابطال اورشليم واليهود المدافعون عنها ولو كانوا اعزَّ من العقاب

ولكن ما لي اتهدَّد اليهود بالهلاك وقد فتنتْ قلبي منهم مهاة في بيروت فارقتها والروح لا يزال منوطاً بها فلا تَلُمني يا لوسيليوس فانَّ فتاة دار الورود قد اسرتني بمحاسنها. وما يزيد رجائي انّي يوم خرجت من بيروت ومررتُ امام قصرها مع فرقة الجند السائرين لمحاربة وطنها رفعتُ بالحاظي لعلّي اراها آخر مرَّة فانظر ان كانت لا تحيد بنظرها عنّي فتلعنَني كما كان يلعنني اليهود الذين يصادفوني في طريقهم... فوقعت عيني عليها وهي على سطح دارها فلم اجد في حركاتها شيئاً يدلُّ على الشحناء والبغض فعلمتُ انَّها باقيةٌ على الوفاء... ومن ثم ها اني ذاهب الى اورشليم فاحارب الحربَ العوان كالاسد الرئبال ولا انكص الى الوراء حتى اعود ظافراً فتسمع يهوديت طيطس قيصر يُعلن باسمي في ملعب بيروت ويكلّلني باكليل الظفر. فاذ ذاك يتمُّ فرحي وفرحها

استودعك الالهة يا صديقي لوسيليوس وارجوك في الختام ان تمرَّ امام دار الورود لترى هل صاحبة الدار في سلام وبهجة كالزهور التي تزين نوافذها »

وما انجز راسيوس الضابط هذه الرسالة حتى طلب ساعياً يأخذها الى بيروت. لكنَّ الليل كان دامساً لا يسمع السامع صوتاً ولا يرى الَّا انواراً ضعيفة في اطراف المعسكر يتمشَّى عندها الحرس فلمَّا ادركهم الضابط استحضر الساعي السائر الى بيروت فاذا هو يسرج فرسهُ للسفر فسلَّمهُ كتابهُ وبعد بضع دقائق رآهُ يركض جوادهُ فتبعهُ بالنظر لعلمهِ بان رسالتهُ تتضمَّن عواطف نفسهِ بل اودعها مهجة قلبهِ

( ستأتي البقيَّة )